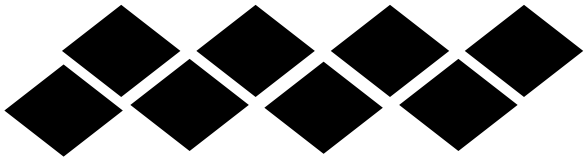

الحسبـان وآيـات اللّه تعالى

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الباحث

كرم عبدالمنصف عبدالفتاح عبدالحميد

مجلة كلية الآداب العدد ٤٩ -٢ سنة٢٠١٩م

ويتضمن مطلبين :

المطلب الأول: الحسبان أن الجبال ثابتة.

المطلب الثاني: الحسبان أن قصة أصحاب الكهف من أعجب الآيات.

المطلب الأول :الحسبان أن الجبال ثابتة

كثيرةٌ هي الآيات في الكون، آيات الله التي أوجدها بقدرته من العدم ليعتبر بها الإنسان ويعلم أن الله حق يستحق العبادة والخضوع له، ولا يحيد عن الحق إلى الضلال، قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)(١)

فيجب على الإنسان أن يتأمل في هذا الكون الواسع، ويتأمل ما فيه من خلق عجيب متناسق محكم، لا يمكن أن يوجد بدون صانع، وليس بمقدور أحد أن يخلق مثله، ذلك أن هذه الخلائق جميعاً من خلق الله تعالى، قال تعالى: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)(٢)

ومن هذه المخلوقات الجبال التى يبدو فيها جلياً صنع الله الذي أتقن كل شيء، قال تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)(٣).

جاء في معنى الآية:

(أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً)(٤)

وقال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً. فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً)(٥)

---

(١) سورة فصلت الآية : ٥٣.

(٢) سورة النحل الآية ١٧.

(٣) سورة النمل الآية ٨٨. ترتيبها في النزول رقم: (٤٨)

(٤) سورة الطور الآية ١٠.

(٥) سورة طه الآيات ١٠٥- ١٠٦- ١٠٧.

وقال تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً)(١).(٢)

وهذا تصوير للجبال يوم القيامة، كيف تزول عن أماكنها متناثرة بقوة الله وقدرته.

فالآية تتحدث عن يوم القيامة ومشاهده، يوم ينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ومن هذه الأشياء التي تزول من مكانها الجبال، فالآية تلفت انتباهنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى وتحكمه في خلقه، وخضوع هذا العالم لقدرته.

واعلم إن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة، وهي تسيير الجبال، والوجه في حسبانهم أنها جامدة، فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية، ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مراً حثيثاً(٣).

هذا التأويل للآية رده بعض المفسرين، وقالوا أن الآية تتحدث عن حال الجبال قبل يوم القيامة، وحملوا الآية على عدة أوجه: قال الماوردي: هذا مثل، وفيم ضرب له ثلاثة أقوال: أحدهما: إنه مثل ضربه الله تعالى للدنيا، يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب، قاله سهل بن عبد الله(٤)

وثانيهما: أنه مثل ضربه الله للإيمان، تحسبه ثابت في القلب، وعمله صاعد إلى السماء، وثالثهما: أنه مثل للنفس عند خروج الروح، والروح تسير إلى القدس(٥).

ويبدو أن هذه التأويلات الثلاثة لم تلق قبولاً عند العلامة ابن عاشور فردها إذ قال: (لا يخفى على الناقَد البصير بعد هذه التأويلات الثلاثة، لأنه إن كان (الجبال) مشبهاً بها فهذه الحالة غير ثابتة لها حتى تكون هي وجه الشبه، وإن كان لفظ (الجبال) مستعاراً لشيء وكان مر السحاب كذلك، كان المستعار له غير مصرح به ولا ضمنياً)(٦). وللعلامة

(١) سورة الكهف الآية ٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢١٧/٦.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ١٨٩/٢٤.

(٤) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين في علوم الاخلاص وعيوب الأفعال، توفي سنة: ٢٨٣هـ – ينظر: الاعلام للزركلي ١٤٣/٣.

(٥) ينظر: النكت والعيون ٢٣٠/٤.

(٦) التحرير والتنوير ٤٨/٢٠.

ابن عاشور رأي آخر في الآية وقف عليه بعد استرساله في تحليل الآيات والوقوف على معانيها ودلالاتها، حيث قال:

(وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية، بأن الرائي يحسب الجبال جامدة، ولا بيان وجه تشبيه سيرها سير السحاب، ولا توجيه التذليل بقوله تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق، ومعنى بالتأويل خليق، فوضعها أنها وقعت موقع الجملة المعترضة بين المجمل وبيانه من قوله تعالى: (فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ ومَنْ فِي الْأَرْضِ)(١) إلى قوله تعالى: (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وهُمْ مِنْ فَزَعٍ يومَئِذٍ آمِنُونَ)(٢)، بأن يكون من تخلل دليل على دقيق صنعَ الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد، ادماجاً وجمعاً بين استدعاء للنظر وبين الزواجر والنذر، كما صنع في جملة (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ) ، أو هي معطوفة على جملة: (أَلَمْ يروا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيه) وجملة (ويوم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) معترضة بينهما لمناسبة ما في الجملة المعطوف عليها من الإيماء إلى تمثيل الحياة بعد الموت، ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة، لتتوجه أنظارهم إلى ما في هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة، وهذا من العلم الذي أودع في القرآن، ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزه للبلغاء من جانبه النظمي)(٣).

إن الله تعالى خص النبي عليه الصلاة والسلام في الخطاب، وأطلعه على هذا السر العجيب في نظام الأرض وإثبات دورانها، كما أطلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى، اختص الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – بعلم ذلك في وقته، وائتمنه على علمه بهذا السر العجيب في قرآنه، ولم يأمره بتبليغه، إذ لا يتعلق بعلمه للناس مصلحة حينئذ حتى إذا كشف العلم عنه نقابه، وجد أهل القرآن ذلك حقاً في كتابه فاستلوا سيف الحجة به وكان في قرابه(٤).

وعلى هذا التأويل للآية فإنها تشير إلى حقيقة علمية لم تكن معروفة آنذاك وهي أن الأرض تدور، وتتحرك بدون أن يشعر بها الناس، وبطبيعة الحال فإن الجبال الراسية على

---

(١) سورة النمل : ٨٧.

(٢) سورة النمل : ٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/٤٨.

(٤) ينظر: المصدر نفسه : ٢/٤٩.

الأرض تتحرك مع حركة الأرض، والناظر إليها يحسبها ثابتة دون أن يشعر بحركتها، هذه الحركة للأرض بصفة الدوران أثبتها العلم فيما بعد(١)، كحقيقة علمية ثابتة بالبرهان القاطع.

كما أظهر العلم – حديثاً – أن الأرض التى نحسبها ساكنة تتحرك بما تحمله من جبال وأثقال بسرعة ١٦٦٩ كيلو متر فى الساعة حول نفسها ، وبسرعة ٥٣٦٢٤ كيلومتر فى الساعة حول الشمس(٢)

وهذا التأويل للآية هو الذي يساعد على فهم قوله: (وَتَرَى الْجِبَالَ) المقتضي أن الرائي يراها في هيئة الساكنة، وقوله: (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) إذ هذا التأويل بمعنى الجامدة هو الذي يناسب حالة الجبال إذ لا تكون الجبال ذائبة، وَ (وَهِيَ تَمُرُّ) أي: مروراً تنتقل به من جهة إلى جهة مع أن الرائي يخالها ثابتة في مكانها، كما يخال ناظر السحاب الذي يعم الأفق أنه مستقر، وهو ينتقل من صوب إلى صوب، ويماطر من مكان إلى آخر، فلا يشعر به الناظر إلا وقد غاب عنه، وبهذا تعلم أن المر غير السير الذي في قوله تعالى: (ويوم نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً)(٣) فإن ذلك في وقت اختلال نظام العالم الأرضي، وانتصب قوله: (صُنْعَ اللَّهِ) على المصدرية مؤكداً لمضمون جملة (تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) ، بتقدير: صنع الله ذلك صنَعا، وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب، إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة، والناس يحسبونها قارة ثابتة، وهي تتحرك بهم وهم لا يشعرون(٤).

وذكر الشنقيطي أ ن هناك سببان يحولان دون هذا التأويل القائل بأن الآية تتحدث عن حركة الجبال في الدنيا، وليس يوم القيامة:

أحدهما: وجود قرينة دالة على عدم صحته، فهو أن قوله تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ) معطوف على قوله: (فَفَزِعَ) وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى: (ويوم يُنفَخُ

---

(١) أثبتها العلم في القرن السابع عشر الميلادي على يد العالم الإيطالي غاليلو وكبلر فيما بعد، ينظر: موسوعة الاعجاز العلمي ، يوسف الحاج أحمد ، ٢٠٦ .

(٢) الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية ، د. أحمد مصطفى متولى ، دار الجوزى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥ م ، صـ ٢٠٩ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٧.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠/٥٠.

في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّماوَات)(١) أي: ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات، وترى الجبال، فدلت هَذه القرينة الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب، كائن يوم القيامة يوم ينفخ في الصور، لا الآن.

وثانيهما: وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن، فواضح لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة، كقوله تعالى: (ويوم نُسيِّر الْجبال وترى الْأَرْض بارِزَة)(٢)، وقوله تعالى: (وإِذَا الْجبال سيِّرت)(٣)، وقوله تعالى في سورة الطور: (يوم تمور السَّماء موراً.وتَسير الْجبال سيراً)(٤)، وقوله تعالى(وسُيِّرت الْجبالُ فَكانَتْ سراباً)(٥)، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: (صُنْعَ اللَّه الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ) جاء نحوه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: (فَتَبارَكَ اللَّه أَحْسَنُ الْخَالقينَ)(٦)، وكقوله تعالى في المعنى نفسه: (مَّا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمنِ من تَفَاوُتٍ)(٧) وتسَيير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسييرها، كل ذلك صنعٌ متقن(٨).

وقال القاسمي: أن هذا التأويل الذي ذهب إليه الشنقيطي غير ممكن لعدة وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامَة، وكذلك قوله تعَالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة، على أن حمل هذه الآية على المسَتقبَل مع أنها صريحة في إرادة الحال، شيء لا موجب له وهو خلاف الظاهر فيها.

الثاني: أن سير الجبال للفناء يوم القيامة، يحصل عند خراب هذا العالم، وإهلاك جميع الخلائق وهذا شيء لا يراه أحدٌ من البشر، كما قال تعالى: (ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ

---

(١) سورة النمل : ٨٧.

(٢) سورة الكهف : ٤٧.

(٣) سورة التكوير : ٣.

(٤) سورة الطور الآيتين ٩- ١٠.

(٥) سورة النبأ : ٢٠.

(٦) سورة المؤمنون : ١٤.

(٧) سورة الملك : ٣.

(٨) ينظر: أضواء البيان ١٤٥/٦.

مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ)(١) أى من الملائكة، فما معنى إذن قوله تعالى : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً)؟

الثالث: أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة إذا رآه أحد شعر به، لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان فيحس بحركتها، وهذا ينافي قوله تعالى: (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) أي: ثابتة، أما في الدنيا فلا تشعر بحركتها، لأننا نتحرك معها، ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها، وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة فإن الجبال تنفصل عن الأرض، وتنسف نسفاً وهذا شيء يراه كل واقف عندها.

الرابع: ورود هذه الآية في سياق الكلام عن يوم القيامة، لورود آية: (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً)(٢) المذكورة قبلها في نفس هذا السياق، والمراد بها ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض، وحدوث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة(٣).

وقد ذهب أكثر المفسرين المتقدمين(٤) إلى إن الآية تتحدث عن يوم القيامة، وقد يكون من الأسباب التي حملتهم على هذا التأويل، عدم ظهور تلك الحقيقة العلمية، بدوران الأرض، في زمانهم وعدم التسليم بها آنذاك، وأرى أن في الرأي الذي ذهب إليه ابن عاشور، والقاسمي في إن الآية تتحدث عن الجبال قبل يوم القيامة، وبما ساقوه من أدلة قوية ومقنعة، مسند بالحجة والدليل العلمي أرى في ذلك رأياً راجحاً يمكن الأخذ به.

---

(١) سورة الزمر : ٦٨.

(٢) سورة النمل : ٨٦.

(٣)ينظر: محاسن التأويل: ٥٣١/٧.

(٤) ينظر: جامع البيان، ٥٠٦/١٩، وينظر: الكشاف ٣٨٧/٣، وينظر: تفسير القرآن العظيم ٢١٧/٦، وينظر: روح المعاني ٢٨٧/١٥.

ومن الأسباب التي تدعونا لذلك هو أن الآيات التي تحدثت عن تسيير الجبال يوم القيامة، وقد استخدمت فعل (سير) وهو المضي في الأرض، ويأتي بمعنى القهر والتسخير(١)، كقوله تعالى: (وإِذَا الْجِبالُ سيِّرت)(٢)

أما الآية موضوع البحث فقد جاءت بفعل (مر) وهو يختلف عن فعل (سير) فالمرور: المضي والإجتياز بالشيء(٣)، فحركة الجبال التي خفيت عن الناظر كان هناك مانعاً من الإحساس بتلك الحركة كشف العلم عنها فيما بعد، فالجبال تتحرك تبعاً لحركة الأرض.

(فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض، ومرور الجبال معها في هذه النشأة، وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة وفساد العالم، وخروجه من متعاهد النظام، وأن حسبانها جامدة لعدم تبيين حركة كبار الأجرام، إذا كانت في سمت واحد، فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير، على أن ذلك نقض وإهدام، وليس من صنع وإحكام)(٤).

وعلى هذا التأويل فإن في الآية الكريمة إعجازاً قرآنياً، إذ أشارت إلى تلك الحقيقة العلمية قبل أن يعرفها علماء الفلك فيما بعد.

جاء فى موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة:

في الآية إشارة صريحة إلى أن الجبال تدور دوراناً سريعاً كالسحاب، لكن الإنسان يراها ثابتة مستقرة، وها هو ذا العلم يثبت أن الأرض تدور بمن عليها من مخلوقات جامدة وحية بنفس السرعة، فلذلك نحسب أن الجبال ثابتة، بينما هي في حقيقتها تدور مع الأرض، وقد ضرب العلماء مثلاً تقريبياً لذلك، فإننا إذا تصورنا قطارين انطلقا في الوقت نفسه والإتجاه والسرعة، فإن الراكب في أحدهما إذا نظر إلى الراكب الموازي له في القطار الآخر يظنه جامداً لا يتحرك، وهكذا حركة الجبال مع الأرض، ووجه الإعجاز في الآية القرآنية، هو أ نها أشارت إلى دوران الأرض وهو ما كشف عنه العلم في القرن السابع عشر الميلادي.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٢٤٧/١.

(٢) سورة التكوير : ٣.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٤٦٥/١.

(٤) محاسن التأويل/ القاسمي ٥١٠/٧.

إن الآية تقرر أن جميع الأجسام التي تخضع لجاذبية الأرض مثل الجبال والبحار والغلاف الجوي، تشترك مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها، ودورتها السنوية حول الشمس، لكن هذه الدورة لا تدرك بالحس فهي مثل حركة السحاب في الجو(١).

إن القرآن الكريم إذ يذكر تلك الحقائق العلمية، ويكشف عنها قبل أن يعرفها البشر بمئات السنين، إنما يبرهن على عظمته التي تتأتى من مصدريته فالله مصدر هذا القرآن، فعلى المسلمين أن يحسنوا التعامل مع القرآن بحفظه وفهم آياته، وفهم معانيها، واستنباط الحقائق العلمية المكنونة فيه، إن العلم سمة هذا العصر، وإحدى مميزاته، واللغة المشتركة بين أهل هذا الزمان، فعلى المسلمين أن يستغلوا التفوق القرآني في محاججة من سواهم، ودحض حججهم الواهية، بحجج القرآن الساطعة الواضحة، وبيان أن مصدرية القرآن ليست بشرية بل إلهية، ومحاولة هداية الناس به، وجهادهم بآياته، استجابةً لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(٢).

إن مَهَمةَ القرآنَ الجهادية مستمرة، فهو يمتلك القدرة على مخاطبة الناس في جميع الأزمنة والأمكنة، فمثلما خاطب العرب آنذاك بما هم متميزون فيه، من حسن كلامهم، وبديع نظمهم، وأعجزهم على أن يأتوا بمثله أو بعض منه، فهو يخاطب العالم اليوم بالحقائق العلمية، التي لا يمكن للبشر أن يعرفها قبل هذا الزمان، وأشار إليها القرآن قبل زمن طويل، مؤكداً على أنه كتاب الله المعجز الخالد، الذي يبقى في كل الظروف وجميع الأحوال، حاكماً لا محكوماً، ذلك لأن مصدره الله تبارك وتعالى.

إذا : فحسبان الجبال جامدة أمر نفاه الله فى قرآنه ودار الزمان دورته وأثبت لنا العلم الحديث فى واقعنا المعاصر هذا الأمر حين يقول العلماء : الجبال أجسام غير ثابتة ، حيث إنها تتبع حركة الأرض فى دورانها حول محورها(٣) .

---

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، دار النشر: ابن حجر، دمشق– سوريا، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م ، ص٢٠٨– ٢٠٩ .

(٢) سورة الفرقان : ٥٢.

(٣) ينظر : المفهوم العلمى للجبال في القرآن الكريم ، د . زغلول النجار ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة العاشرة ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨ م ، صـ ٤٠–٤١

المطلب الثاني: الحسبان أن قصة أصحاب الكهف من أعجب الآيات

تعددت أساليب القرآن الكريم في دعوته للناس إلى الهداية، ومن هذه الأساليب القصة قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)(١)، قال ابن عاشور: جعل هذا القصص أحسن القصص، لأن بَعض اَلقَصَص لا يَخلو عن حسن ترتاح إليه النفوس وقصص القرآن أحسن من قصص غيره، من جهة حسن نظمه، وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العبر والحكم، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن، فإن القصص الوارد في القرآن، كان أحسن لأنه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنه أحسن نفعاً للسامعين في إبداع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح، وابتهاج النفس والذوق مما لا تأتي بمثله عقول البشر(٢).

إن القصة في القرآن لها أهدافها التي تتوافق مع مقاصد القرآن الكريم ككتاب هداية، وليس من الحكمة التعامل معها على نحو غير ذلك.

ومن هذه القصص التي ذكرها القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف، قال تعالى: (أَم حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً)(٣).

وفي سبب النزول قال الواحدي:

(إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وحاله: سلوا محمداً عن الروح، وعن فتية فقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها، فإن أصاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك فليس نبياً، وإن أصاب في بعض وأمسك عن بعض فهو نبي، فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية، قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ) إلى آخر القصة(٤).

واعلم أن القوم تعجبوا مَن قصة أصحاب الكهفَ وسألوا عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم –، على سبيل الإمتحان، فقال تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ

---

(١) سورة يوسف الآية ٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠٣/١٢.

(٣) سورة الكهف الآية ٩.

(٤) ينظر: أسباب النزول، الواحدي ص١٩٩.

كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) فإن من كان قادراً على تخليق السموات والأرض، ثم يزين الأرض بأنواعَ المعادَن والنبات والحيوان، ثم يجعلها بعد ذلك صعيداً جرزاً خالية عن الكل، كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم، هذا هو الوجه في تقدير النظم والله أعلم(١).

إن قصة أصحاب الكهف لا عجب فيها بالنسبة على ما خلقنا مما هو أعظم منها، ومنها أن الله سبحانه يكثر في القرآن الكريم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك، كقوله تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)(٢) وكقوله تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)(٣)، ومن خلق هذه المخلوقات العظام، كالسماء والأرض، وما فيها فلا عجب في إقامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة ثم بعثه إياهم كما دلت الآيات(٤).

(ومعنى الحسبان : ما حسبت أنهم كانوا من آياتنا عجباً لولا أن أخبرناك وأوحينا إليك)(٥).

فقد كانت قصة أصحاب الكهف في مقاصد الإصلاح والتعليم التي جاء لتحقيقها القرآن، في البيئة الموبوءة التي بعث فيها النبي محمد – صلى الله عليه وسلم –، ونزل فيها القرآن، وفي طبيعة بشرية لا تختلف اختلافاً كثيراً في الأزمنة والبيئات التي تتوالى وتتجدد، والحوادث التي تتعاقب وتتكرر، وفي الأجيال البشرية التي سيخاطبها القرآن، وتقودها النبوة المحمدية على اختلاف الأعصار والأمصار(٦).

وجاء في معنى الآية:

أي: لا تظنن إن قصة الكهف وما جرى لهم غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير من

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ٦٩/٢١، وينظر: تيسير الكريم الرحمن ٤٧١/١.

(٢) سورة غافر : ٥٧.

(٣) سورة النازعات : ٢٧.

(٤) ينظر: أضواء البيان ٢٠٥/٣.

(٥) النكت والعيون ٢٨٧/٣.

(٦) ينظر: الصراع بين الإيمان والمادة، للعلامة السيد أبي الحسن علي حسن الندوي، الناشر: دار ابن كثير– دمشق– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م، ٦٥.

جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يري عباده من الآيات في الأفاق وفي أنفسهم، ما يبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها في مقام العجب، والاستغراب نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكر في جميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكر فيها فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيمان(١).

والكهف: غار في الجبل، والرقيم: لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ونصب على الكهف والرقيم: الكتاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه (كتاب مرقوم)(٢).(٣)

وقد اختلف العلماء في معنى الرقيم:

قال ابن عباس: اسم القرية التي كانوا منها، وقال الحسن البصري: هو اسم الجبل وقال الضحاك(٤): اسم الوادي، وقال سعيد بن جبير(٥): اسم كلبهم، وقال مجاهد: اسم الكتاب الذي كتب فيه شأنهم(٦). ورجح الطبري أن الرقيم هو اسم الكتاب الذي كتب فيه شأنهم، وهذا ما ذهب إليه ابن كثير، والواحدي، والألوسي، والشنقيطي(٧).

وقد اختلف العلماء في أسمائهم وعددهم وزمانهم مما لم يذكره القرآن، قال الشنقيطي:

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ٤٧١/١.

(٢) سورة المطففين : ٩ .

(٣) ينظر : التبيان في تفسير غريب القرآن، ٢٧١/١.

وينظر: غريب القرآن، أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد حمران ، الناشر: دار قتيبة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، الطبعة الأولى، ٢٣٩/١.

(٤) هو الضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، أبا عثمان، كان ثبتاً، روى عنه الثوري وابن أبي فديل وغيرهما، مات بالمدينة سنة ثلاث وخمسين ومائة هجرية، ينظر: الطبقات لابن سعد ٣٩٧/١، وينظر: تهذيب التهذيب ٤٤٧/٤.

(٥) هو سعيد بن جبير يكنى أبا عبد الله مولى لبني والبة من بني أسد، أخذ جل علمه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروي عن ابن عمر وابن عباس، روي أنه كان يختم القرآن كل ليلتين، كان عالماً عابداً، قتله الحجاج ظلماً سنة أربع وتسعين هجرية، ينظر: الطبقات لابن سعد ٢٦٧/٦.

(٦) ينظر: النكت والعيون ٢٨٧/٣.

(٧) ينظر: جامع البيان ٦٠٤/١٧، وينظر: المحرر الوجيز ٤٦٦/١، وينظر: تفسير القرآن العظيم ١٣٩/٥،وينظر: روح المعاني ٢١٠/١٥، وينظر: أضواء البيان ٢٠٦/٣.

(واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسمائهم، وفي أي محل من الأرض كانوا، كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة اسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها)(١).

والحقيقة أن تلك التفاصيل لا ينبغى لنا أن نشغل أنفسنا ولا عقولنا بها ، لأنها أمور سكت عنها الله فى قرآنه ، وسكت عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى سنته ، كما أن معرفة تلك التفاصيل لا تسمن ولا تغنى جوع إذ المراد من ذكر القصص فى كتاب الله الإعتبار والإتعاظ وأخذ الدرس والعبرة من القصة القرآنية ، كما أن الإنشغال بتلك التفاصيل يعتبر انشغالاً عن مراد الله لنا فى قرآنه من التدبر .

والذى يقرأ فى كتب التفسير يرى عجباً وأخباراً غريبة لا تقبلها العقول التى فطرها الله على قبول الحق .

وهناك علم كامل مستقل من علوم القرآن اهتم بهذا الأمر سماه العلماء : الدخيل فى التفسير تحدث عن الاسرائيليات والأباطيل التى لا تصح .

ومما ينبغي أن نتذكره أن الدخيل والإسرائيليات هي موجودة في ثنايا كتب التفسير، لكنها لم تُفرد بالتأليف إلا في العصر المتأخر

فمن الكتب المشتهرة في هذا: (الإسرائيليات والموضوعات) لفضيلة الدكتور محمد أبوشهبة، وأيضًا (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبي، و (الإسرائيليات في التفسير والحديث) له أيضًا، وأيضًا (الدخيل في التفسير) للدكتور عبد الوهاب فايد، و (الدخيل في التفسير) للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة.

أما السابقون، فلا يخفى أن الإمام السيوطي وابن عراق وغيرهم، هؤلاء لهم كتب منها : (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة) لابن عراق الدمشقي، و هناك أيضًا (تدريب الراوي على شرح تقريب النواوي) للإمام السيوطي، هناك (تحذير الخواص من أكاذيب القصاص) للسيوطي وغيرها.[٢]

---

(١) أضواء البيان ٣/٢٠٦.

(٢) الدخيل فى التفسير ، منهج مقرر فى جامعة المدينة العالمية ، الناشر : جامعة المدينة العالمية ، صـ٩

(وقد أشارت الآية إلى نفر من صالحي الأمم السابقة ثبتوا، على دين الحق في وقت شيوع الكفر والباطل، فانزووا إلى الخلوة تجنباً لمخالطة أهل الكفر، فأووا إلى كهف استقروا فيه، فراراً من الفتنة في دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نوماً بقوا فيه مدة طويلة، ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافون على دينهم، وبعد أن أيقنوا بذلك، أعاد نومتهم الخارقة للعادة، فأبقاهم أحياء إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم، وحفظ أجسادهم من البلى كرامة لهم)(١).

فهؤلاء آثروا الإيمان على الكفر، وفروا بدينهم إلى الله، وأبوا أن يعيشوا في ظلال الوثنية.

فقد انطلقت موجة عنيفة من الوثنية والشهوانية، جرفت كل القيم الروحية والخُلقية، وأصبح المجتمع مجتمعاً مادياً محضاً، لا يدين إلا بالمظاهر المحسوسات، ولا يؤمن إلا بالذات العاجلة، والمنافع الحاضرة، وأصبح هذا الخُلق هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحكم والغنى، والمجد والشرف، وأصبح الناس طرازاً واحداً من عباد الشهوات، عشاق المناصب والوظائف، وهواة الإقطاعات والولايات، في ظل تلك الوثنية الجائرة وفي هذا المجتمع المتهالك الخليع، وجد رهط من الناس تسرب إليهم الإيمان بالله تعالى، كانت عقولهم واعية وقلوبهم خاشعة، وضمائرهم حية، فأصبحوا يعيشون بالإيمان لا بغيره، ولا يبيعونه بأكبر ثمن في العالم ولو كان هذا الثمن نفوسهم وحياتهم(٢).

(لقد ضاقت على أولئك الفتية المؤمنين، الدنيا الواسعة العريضة التي كانوا يعيشونها مع قومهم الكافرين، ضاقت عليهم على سعتها، لأنها خالية من الإيمان، ضاقت بهم لأنها امتلأت كفراً بالله، وتضيق الدنيا والحياة عندما تخلو من الإيمان، وعندما يعمها الكفر والفسوق والضلال، فيراها المؤمن ضيقة تكاد تكتم أنفاسه، أما الكهف- الضيق- فقد اتسع من حولهم، فأحسوا إنه واسع عريض، فمن أين جاء هذا الإحساس؟ إنه إحساس حقيقي، وليس وهماً أو تسلية أو ظناً، إن المؤمن يشعر بأنس وراحة وانشراح، عندما يمارس إسلامه ويعيش حقائق إيمانه)(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦١/١٥.

(٢) ينظر: الصراع بين الإيمان والمادية ٦٥.

(٣) مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، الناشر: دار القلم- دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ٣٠٤.

(لقد آثر الفتية المؤمنون الإيمان على المادة، وآثروا الآجل على العاجل، وآثروا أن يعيشوا فقراء غرباء وهم مؤمنون، على أن يعيشوا أغنياء أو أمراء وهم كافرون، وآثروا أن يعيشوا بعيداً عن الوطن والأقارب والأحباب، لا حظ لهم في متعة الحياة ولذة العيش ، على أن يشركوا بالله ويرضوا شهواتهم ويتعاونوا على الإثم والعدوان، لقد فروا من مقتضى النفس إلى مقتضى الروح، ومن مقتضى العقل إلى مقتضى الإيمان، فتحقق إنهم كانوا أعمق عقلاً وأبعد نظراً وأن العاقبة للمتقين)(١).

إن الحياة بدون العيش في ظلال الإيمان هي حياة بائسة ليست لها قيمة حقيقية، وإنما هي حياة هابطة حياة الشهوات والرغبات، والنزوع إليها بأي ثمن كان، وبأي طريق يوصل إليها، فهي لا ترقى أبداً إلى حياة الكرامة، التي يعيشها الإنسان في ظل عبوديته لله والإيمان به. والإحساس بآثار تلك العبودية الصادقة في حياة المؤمنين.

(لقد حققوا فيهم صفة الإيمان والفتوة، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية، والتأييد الرباني: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ)(٢) فحقق الله لهم جميع مواعيده: وعد الزيادة في الهداية، ووعد التثبيت: (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)(٣)، وما أحوج المؤمن إلى الهداية والتثبيت، وإلى أن يربط الله على قلبه الخفاق، ونفسه المضطربة، وقد أنجز الله وعده في هؤلاء الفتية الكرام، فزادهم هدى، وربط على قلوبهم وأخرج منها الجبن والخوف، والحيرة والإضطراب، وملأها شجاعة وسكينة، وقوة يقيناً، وفرحاً وسروراً، ورضا بالله وأفعاله، وذلك زاد المهاجر في سبيل الله)(٤).

وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب الكهف بأنهم كانوا فتية، قال تعالى: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ)(٥).

ومرحلة الفتوة هي مرحلة الحماس والإندفاع والحيوية، مرحلة العطاء والهمة والإلتزام، والشباب هم عامل الإصلاح، ولقد كان الشباب هم غالب أتباع الأنبياء والدعاة والمصلحين، ونظراً لما للشباب من أثر ملحوظ، وحرصاً من أعداء المسلمين في هذا الزمان

(١) الصراع بين الإيمان والمادية ٧٧.

(٢) سورة الكهف : ١٣.

(٣) سورة الكهف الآيتين ١٣- ١٤.

(٤) الصراع بين الإيمان والمادية، ٦٨.

(٥) سورة الكهف : ١٣.

على عدم استفادة المسلمين من طاقات وهمم شبابهم، فقد حرصوا على غزو الشباب في أفكارهم وعقائدهم، وإيقاعهم في الضياع والعبث، وقتل نخوتهم وهمتهم واندفاعهم، وتوجيههم إلى توافه الإهتمامات والأعمال والحياة(١).

والناظر من حولنا يشعر بحزن عميق ويأسى كبير إزاء ما وصل إليه شباب أمتنا المسلمة. نرى شباباً فقدوا الأسوة والقدوة ، وفقدوا الحس الإيمانى – إلا من رحم ربى – واهتم كثير منهم بتوافه الأمور ، وشغلوا بأشياء لا وزن لها ولا قيمة .

(وما حورب شباب المسلمين كما حوربوا في هذا الزمان، ولا غُزوا كما غُزوا في هذا الزمان، وما فجع المسلمون في شبابهم كما فجعوا في شبابهم في هذا الزمان، وما ضل وضاع شباب المسلمين كما ضلوا وضاعوا في هذا الزمان، وكم تخسر الأمة عندما تصاب في شبابها، وتفجع في فتيانها وهم عمادها ومعقد رجائها)(٢).

فعلى الأمة التركيز على الشباب لأنهم عماد الأمة وطاقتها التي تُبنى بها، فيجب تربيتهم التربية السليمة الصحيحة التي تضمن الفهم الصحيح للإسلام، بما يمكنهم من التحصن ضد الأفكار الضالة والغزو الفكري والثقافي الذي يتعرض له الشباب المسلم، وإن تكون شخصية الشاب المسلم في ضوء التعاليم الإسلامية ضروري للنهوض به كعامل بناء في المجتمع المسلم، وليس عامل هدم يستجيب لكل داع يدعوه إلى الإنسلاخ من هذه الأمة ويكون عليها لا لها، إن الفيصل في بناء الأمة هم الشباب الواعي، الذي يفهم ما له وما عليه، ويسير بهدي من تعاليم دينه الحنيف، ولا يصغي للأصوات التي تدعوه للإنحراف مهما كثرت وتعددت وتلونت، والبقاء ضمن منظومة الأخلاق الإسلامية.

وقد صف الله سبحانه وتعالى حال الفتية وهم داخل الكهف، قال تعالى: (وَتَحسبهم أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)(٣).

وتحسبهَم بكسَر السينَ وفَتحها: خطاب لكل أحد، والأيقاظ جمع يقظ، قيل: عيونهم مفتوحة وهم نيام، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً، وقيل: لكثرة تقلبهم، وقوله تعالى: (رعبا) وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي: يملؤه، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ولوحشة مكانهم، وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله

(١) ينظر: مع قصص السابقين في القرآن الكريم ٢٩٢ –٢٩٣ .

(٢) مع قصص السابقين ٢٩٣.

(٣) سورة الكهف : ١٨.

عنه أنه غزا الروم فمر بالكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى من هو خير منك، فقال: (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث ناساً وقال لهم ا ذهبوا فانظروا، ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم(١).

قال ابن عباس: يقلبون في كل عام مرتين، ستة أشهر على جنب، وستة أشهر على جنب آخر، وقال مجاهد: إنما قلبوا تسع سنين بعد ثلاثمائة سنة لم يقلبوا(٢).

(ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر)(٣)

وذكر أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، ولهذا قال: چ ڑ ڑ ک ک ک چ، وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، قال الشاعر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم(٤)(٥)

وفي أثناء رقودهم في الكهف (ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب،

قال ابن جريج(٦): يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم)(٧).

(وقال ابن عباس رضي الله عنه: فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم، وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلاث مائة سنة وأكثر، فلم

---

(١) ينظر: الكشاف ٢/٧٠٩.

(٢) ينظر: النكت والعيون٣/٢٩٢.

(٣) روح المعاني : ٨/٢١٤.

(٤) البيت لحميد بن ثور، ينظر ديوان حميد بن ثور ، طبعة دار الشعب ، صـ ١٠٤ .
وينظر العقد الفريد ٧/٢٦٩ .

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٥/١٤٣.

(٦) هو عبد الملك بن عبد العزيز جريج الرومي مولى بني أمية، كان أحد أوعية العلم، عالم مكة، وهو أول من صنف التصانيف في الحديث، روى عن خلق كثير من التابعين، توفي سنة خمسين ومائة هجرية، ينظر: الوافي بالوفيات/ الصفدي ٦/٢٥١.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٥/١٤٤.

لا يقدر على حفظ أجسادهم من غير تقليب)(١) (والله قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم أراد أن تجري سنته في الكون ويربط الأسباب بمسبباتها)[٢]،

وعلماء الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم يقولون :

(من المعروف عند الأطباء أنّ من الأمراض الخطيرة التي يعاني منها المرضى في المستشفيات (قرحةَ السرير) ، فالمرضى الذين تضطرُّهم أمراضُهم إلى البقاء طويلاً على السرير؛ ككسر الحوض مثلاً، وكسر العمود الفقري، والشلل، وحالات السُّبات الطويلة، هذه الحالاتُ المرضيةُ تستوجب أن يبقى المريضُ مستلقياً على ظهره أياماً وشهوراً.

إنّ من مضاعفات هذا الاستلقاء مرضاً خطيراً اسمه (قرحةُ السرير) ، لأن اللحم، والجلد والنسيج ينضغطُ تحت الجلد من العظم في الداخل، والسطح الصلبي من الخارج، هذا الضغطُ يمنعُ التروِيةَ عن هذه الأنسجة فتموت، وينشأُ حولها تقرُّحاتٌ مزعجةٌ جداً.

لذلك ينصح الأطباء كلَّ من يستلقي على سريره لفترةٍ طويلةٍ أن يتقلب كلَّ ساعتين، فإذا بقي على جنبٍ واحدٍ، وبحالةٍ واحدةٍ ما يزيد على اثنتي عشرة ساعةً تبدأُ تقرُّحات الجلد، ويبدأُ موتُ النسيجِ تحت الجلد، ولا وقايةَ لهذا المرض سوى تقليب المريض على كل أنحائه. والذي يبعث على الاستغرابِ أنّ الله سبحانه وتعالى جعل أهل الكهف يلبثون في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً، دون أن يصابوا بهذه التقرحات، قال تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال)[٣].

لولا هذا التقليب لتقرَّحت جلودهم، ولماتت أنسجتُهم، ولماتوا، لكن هذه إشارةٌ قرآنيةٌ إلى أن الجسد لا يمكن أن يبقى على حالةٍ واحدةٍ، ويقول العلماء والأطباء: "إن أكثر الأجزاء من الجسد إصابةً بهذا المرض الخطير (قرحة السرير) المنطقةُ العجزيةُ، والإليتان، ولوحا الكتفين، وكعبا القدمين، هذه أماكن فيها عظام، لأن العظام تضغطُ على المكان الصلب في السرير، فيهرس اللحم، وتنقطع التروِيةُ، فيموت النسيج، ويسودُّ، ويتقرَّح الجلد".

ولا شكَّ أن الذين يبقون في أسرَّتهم أياماً طويلةً قبل موتهم، يلاحظُ عليهم أنّ لحمهم يتساقطُ، لذلك: {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال} .

---

(١) التفسير الكبير ٨٦/٢١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤٧٢/١.

(٣)سورة الكهف : ١٨

هذا كلامُ ربِّ العالمين، كيف بقي هذا الإنسانُ ثلاثمئةٍ سنين وتسعاً، ولم يُصبِ جلدُه، أو نسيجه بتقرحاتٍ أو مواتٍ؟ من هذا التقليب، فهذه إشارةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ، وقد راقب العلماءُ نائماً، فإذا به يغيِّر وضْعه في الليلة الواحدة أكثر من ستٍّ وثلاثين مرةً، دون أنْ يشعر، لئلا تُهرس أنسجتُه تحت ضغط العظمِ، وضغطِ السريرِ، هذا في الحالات العادية، لكن في الحالات المرضية، كأن يكون في الظَّهرِ كلّه جبسٌ، وكذا الحوضُ، ولا يستطيعُ المريضُ تغيير وضْعه، فلا بدَّ من تقليبه لئلا يصاب بهذا المرض)[1].

و(لاشك أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه، ومعجزة من معجزاته، لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان)(٢).

وقد اختلف المفسرون في عدد أصحاب الكهف، وقد ذهب أبو القاسم السهيلي(٣): أن عدد أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى حكى قول من قال: ثلاثة وخمسة، ولم يذكر الواو في قوله رابعهم سادسهم، وحكى قول من قال: إنهم سبعة ثم قال: وثامنهم كلبهم، قال: لأن الواو عاطفة على كلام مضمر تقديره نعم وثامنهم كلبهم(٤).

(اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال: ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ثم أرشد إلى أن الإطلاع على عدتهم لا طائل تحته فيقال في مثل هذا: (قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم)(٥) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً)(٦) أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لاَ يعلمون من ذلكَ إلا رجم الغيب)(٧).

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ،د . محمد راتب النابلسي ، دار المكتبي – سورية – دمشق ، الطبعة: الثانية ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م ، ١/ ٢٣١-٢٣٣

(٢) تفسير الشعراوي ٨٨٦٢/١٤.

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، حافظ، عالم باللغة والسيرة، ضرير، أقام بمراكش ومات فيها، سنة ٥٨١هـ، ينظر :وفيات الأعيان٢٤٣/٣ ، وينظر: الإعلام للزركلي، ٣١٣/٣.

(٤) ينظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ٧٦/١٤.

(٥) سورة الكهف الآية ٢٢.

(٦) سورة الكهف : ٢٢.

(٧) التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، الناشر: مكتبة وهبة– القاهرة– مصر، ١٣٣/١.

وقد أشار العلماء إلى عدة وجوه للإعجاز القرآني في أصحاب الكهف:

قال السهيلي:

إن التفاصيل الدقيقة عن صفات أهل الكهف التي بينتها الآيات عن كهفهم وحالهم في الكهف فيها فائدة عظمى، فإن هذا البيان لا يكاد يعرفه من رآهم، فإن المطلع عليهم يملأ منهم رعباً، فلا يمكنه تأمل هذه الدقائق من أحوالهم، والنبي – صلى الله عليه وسلم – لم يرهم قط، ولا سمع بهم، ولا قرأ كتاباً في صفتهم لأنه أمي في أمة أمية، وقد جاءكم ببيان لا يأتي به من وصل إليهم، لولا الوحي الذي جاءه من الله سبحانه بالبيان الواضح الشافي، والبرهان الكافي(١).

قال تعالى: (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) نجد في هذه الآية إعجازاً قرآنياً أشار إليه العلماء، حيث أن النوم يمر بعدة مستويات، وهناك نوع من النوم ليس له علاقة بمستويات النوم، وهو النوم الذي مر به أصحاب الكهف، ويسمى (نوم حركة العينين السريعة) وصفات هذا النوم : تكون العينان نصف مفتوحة، مع حركة دورانية يميناً وشمالاً، وبأسلوب غريب مخيف، وحاسة السمع تبقى قوية، والتقلب يكون قليلاً، قال تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً)(٢)، لأن الضرب وقع على كل أعمال ووظائف الأذن، منَ سمَع وإحساسَ وتوازن وسيطرة على التقلب، فيكون التقلب بإذن الله فقط، وهذا النوم هو أحسن وضع علمي عرفه العلماء في هذا الزمان في علم الفسلجة، ليحافظ على الأنسجة، ويحافظ على جسم الإنسان من التقرح والضمور(٣).

وقال تعالى: (وهم رقُود)(٤) وهذا إعجاز قرآني آخر، لأن النوم وصفاته كشفت في أواخر القرن الماضي وصفات النوم كنوم معلومة لذا لم يقل سبحانه عن أصحاب الكهف أنهم ناموا بصفات النوم العلمية، بل ذكر ما قد اختلف عما يعرفه العلماء في هذا الزمان

---

(١) ينظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي ، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ٣/٧٩.

(٢) سورة الكهف: ١١.

(٣) ينظر: لمحات في الإعجاز العلمي لسورة الكهف، د. عمر محمود الراوي، الناشر: وهي القلم – دمشق – سوريا ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، الطبعة الأولى، ٣٦-٣٧.

(٤) سورة الكهف: الآية ١٨.

من الـ نوم لذا كانت كلمات القرآن دقيقة جداً، فلم يذكر النوم بل ذكر أنهم (رقود) وهذا ما فهمه العرب في عصر الرسالة على أنه نوم، ولكن الحقيقة أنه نوع من السبات، وهذا تم بأمر الله تعالى ليحفظهم أطول مدة كما يريد سبحانه(١).

قال تعالى: (وترى الشَّمس إذَا طَلَعت تَّزَاور عن كَهْفهمْ ذَاتَ الْيَمين وإذَا غَربت تَّقْرضُهمْ ذَاتَ الشّمال)(٢) فأصبح اليمين والشمال ثابتا، أي لَو وقفت أمامَ الكهف تماما، فسيكون أمامك الكلب، وواجهة الكهف مفتوحة أمامك، وعن اليمين تطلع الشمس، فتحجب بحاجز حجري، صيفاً وشتاءاً، وتغرب يساراً فتصيبهم بقرضة بسيطة صيفاً وشتاء، والقرضة(٣) كافية للفعاليات الحيوية في جسم الإنسان الراقد وتعقيمه، ولابد أن يكون للكهف شكل خاص، ولا بد أنه منتقى من الله تعالى، فهو آية من آيات الله(٤).

فمع أن قصة أصحاب الكهف قصة عجيبة وأنباؤها غريبة إلا أن في آيات الله ما هو أعجب منها كخلق السماوات والأرض وما فيهن وغيرها من الآيات البينات .

إن القدرة التي أيدت أصحاب الكهف، رغم قلة حيلتهم، وانقطاع الأسباب عنهم، هي قدرة يجب أن يضعها أهل الإيمان في حسابهم ويثقوا بها، ولا يعرضوا عنها، وهذه القصة تدعو أصحاب العقول لأن يعتبروا بها وبدلالتها، فهي تدل بوضوح على أن الله سبحانه قادر على نصر المؤمنين الصادقين، وتأييدهم وجعل حسن العاقبة لهم،

إن قدرة الله سبحانه يجب أن يضعها المسلم في حسبانه فهي القوة الوحيدة التي تملك أسباب الحياة وعدمها، وأسباب النصر والهزيمة، والربح والخسارة فعلى المؤمنين التوكل على الله حسن توكله، والثبات على دينه، وأن يستشعروا عظمة الله سبحانه وقدرته فيؤمنوا به حق الإيمان ويتقوه حق تقاته، ويعلموا أن الله على كل شيء قدير.

---

(١) ينظر: لمحات في الإعجاز العلمي لسورة الكهف، ٣٩-٤٠.

(٢) سورة الكهف: ١٧.

(٣) القرض : ضرب من القطع، وسمي قطع المكان وتجاوزه قرضاً، كما قال الله تعالى: (تَّقْرِضُهم)، أي: تجوزهم وتدعهم إلى أحد الجانبين، ينظر: المفردات في غريب القرآن ١/٤٠٠.

(٤) ينظر لمحات في الإعجاز العلمي لسورة الكهف، ٤٠-٤١.